مُقَدِّمَة

يتساءل جميع الآباء من وقت لآخر: هل يجدر بهم القلق بشأن عدم امتثال أطفالهم وتمردهم؟ يمثل ذلك ما يصعب اتخاذه من القرارات. تتسم بعض المستويات المتعلقة بعدم الامتثال والتمرد بالاعتيادية، لا سيما أثناء «العامين الرهيبين»، فضلاً عن أن اكتساب القدرة على معارضة إرادة الآخرين يعد أمراً صحياً، ضمن ظروف معينة[1]. تحدث المشكلة، في الحقيقة، حين يمتد العامان الرهيبان، ويرتفع المستوى المتعلق بعدم الامتثال والتمرد. إن كان ذلك يمثل حال طفلك، فيوجد من الأسباب ما يدفعك للقلق.

يمكن أن يدفعك القلق -على الأرجح- للتساؤل قائلاً: «هل آن الأوان لاتخاذ الإجراءات؟، هل أحتاج إلى القيام بشيء ما، وإن اتسم بالكثير من القسوة، لإنهاء تمرد طفلي وعدم امتثاله؟» محتمل. إن بلغ طفلك الثالثة أو ما يزيد، فيجدر بك طرح الأسئلة الآتية:

1. هل يستثير طفلي، بصورة متكررة، غضب الآخرين؟

2. هل يتحداني طفلي بصورة متعمدة؟

3. هل يتعمد طفلي، بغية إيقاع الأذى، إثارة النزاع والتشاجر مع أشقائه؟

4. هل يطلق طفلي ثورات غضبه، حين لا تسير الأمور كما يشتهي؟

5. هل أسمح لطفلي بالنجاة بأفعاله، كي أحظى بشيء من الهدوء والسكينة؟

إن أجبت بنعم عن اثنين أو أكثر من تلك الأسئلة، فسيعني ذلك أن الوقت قد حان لاتخاذ الإجراءات. لا يتخلص من يظهر عدم الامتثال والتمرد في سن مبكرة من الأطفال، من هاتين الصفتين، مع تقدمه في العمر، إلا فيما ندر من الأوقات[2]، لتأخذ ثورات غضبه في التزايد، إضافة إلى ما يظهره من التمرد وعدم الامتثال، إلى الحد الذي يعطل المنزل بأكمله، ويضفي التوتر على زواجك. يثير أولئك الأطفال، على حد سواء، المشكلات في المدرسة وغيرها من الأماكن في المجتمع، مما يلزمك بالتحرك.

ولكن ما العمل بذلك الصدد؟. يقول بعض «الخبراء»: إن سلوك الطفل المتمرد متعمد. ومن ثمَّ يعمد أولئك الخبراء، بدافع من تلك القناعة، إلى إخبار الوالدين أن ما يحتاجه الطفل يتمثل في جرعة صحية من التأديب الصارم. أخبرتني إحدى الوالدات عن حوار دار مع أحد أولئك الاستشاريين. خاطبها الأخير، بعد أن وصفت سلوك طفلها، قائلاً: «يتمثل أول ما يتعين عليك فهمه في أنك تخسرين حين يربح الطفل. يحتاج ولدك أن يعلم من يتولى زمام الأمور. يتعين أن يدرك مدى جديتك حين تخبرينه ما يفعل».

لا نتفق مع تقويم المشكلة ذاك، أو ما وضع لها من حلول. لا يوجد من الأطفال من يستيقظ ذات يوم ليقرر التمرد، وعدم الامتثال، وتبني العدوانية. يرفض الأطفال الامتثال، بالأحرى، ويتسمون بالتمرد بصورة تدريجية، نتيجة أسباب متعددة. تظهر المشكلات السلوكية لدى بعض الأطفال نتيجة نشأتهم فيما هو متوتر من الأوضاع. يتصرف أولئك بصورة سلبية في محاولة للتأقلم مع تلك الأوضاع. تعد العدوانية، من وجهة نظر الطفل، ضرورية للحفاظ على ذاته. يكافأ أطفال متمردون آخرون، ولو بصورة غير متعمدة، نتيجة إصرارهم على فعل ما يشاؤون. لا يعود التمرد وعدم الامتثال، من وجهة نظرهم، إلا بما هو مجزٍ من العوائد. يوجد، إضافة إلى ذلك من يولد من الأطفال المتمردين بما هو سيئ من الطباع. يأتي أولئك إلى العالم بما يعيقهم طوال الحياة من الطباع، ويسبب المشكلات للمحيطين بهم.

يتمثل بيت القصيد، بكل الأحوال، في أن عدم امتثال أولئك الأطفال، فضلاً عن تمردهم وعدوانيتهم، لا يعود إلى استمتاعهم بما يسببونه من معاناة لوالديهم؛ بل لعجزهم عن إدراك إشارات التواصل الاجتماعي. لا يثير أولئك الأطفال النزاع؛ لرغبتهم في إهانة الناس؛ بل لافتقارهم إلى السيطرة على اندفاعهم. لا يتسم أولئك الأطفال بالعدوانية؛ لأنهم يستمتعون بأن يكونوا بغيضين؛ بل لجهلهم أي طريقة أخرى لنيل مرادهم.

تتجسد الحقيقة في أن الأطفال المتمردين يخفقون بالفعل، في سن مبكرة، في أكثر مهام الحياة أهمية -تعلم كيفية الانخراط فيما هو مثمر من العلاقات المتبادلة. لا يحتاج أولئك الأطفال إلى من يحاول معاقبتهم من الوالدين على ما يظهرونه من عدم امتثال وتمرد؛ بل بالأحرى، إلى من يوفر الرعاية من الوالدين، المتسمين بالتعاطف مع أطفالهم، العالمين بكيفية مساعدتهم في تطوير علاقاتهم الإيجابية وتعزيزها. يحتاج آباء الأطفال

ذوي المشكلات السلوكية، بغية تحقيق ذلك، إلى اكتساب ما هو جديد من المهارات. لا بد أن نتسم، مع ذلك، بالكثير من الصراحة في هذه المرحلة. لا يوجد، عند تربية الأطفال ذوي المشكلات السلوكية، ما هو سهل من الإجابات أو سريع من الحلول. لا مناص من العمل في ذلك السياق. ابحث، إن أمكن عمن يشاركك الوضع ذاته من الآباء الآخرين، واعمل بمشاركته على قراءة هذا الكتاب، فصلاً تلو الآخر؛ لتنخرطا في مناقشته، بينما تمضيان قدمًا. يجدر بكما، بما يتسم بالقدر الأكبر من الأهمية أن تعمدا إلى مساعدة ودعم بعضكما، بينما تتعلمان أفكاراً جديدة، قبل الشروع في تطبيقها.

يعرض هذا الكتاب الأساليب والمهارات التي تمكنك، عند تطبيقها، من نقل علاقتك بطفلك من مرحلة المواجهة إلى الانسجام. ستتعلم، في هذا الكتاب كيفية منح طفلك الأساس والدعم الذي يحتاج للتصرف بطريقة ملائمة. ستتعلم، على حد سواء، كيفية استخدام ما يظهره طفلك من سلوك ملائم لتعزيز علاقتك به، مما يمثل العلاج لإنهاء مشكلات طفلك السلوكية.

الشكر

ندين بالفضل للأصدقاء والزملاء الذين قرؤوا المسوَّدات الأولية لهذا الكتاب. قدم أولئك ما هو قيم من الاقتراحات والإسهامات التي حسنت من مستوى الكتاب، وزادت من قابلية الناس لقراءته. نود أن نشكر، على وجه الخصوص، فاي جاكمان؛ لتحريرها المسودَّة الأولى لهذا الكتاب، ومساعدتها في صياغة مخطوطته بما جذب انتباه عدد من شركات النشر. نشكر، على حد سواء، الدكتور توم ستاناغ، عالم النفس السريري الاستثنائي في موهبته، الذي قدم الاقتراحات والنصح بما ساعدنا في مقاربة أفضل لمخاوف الوالدين واهتماماتهما. عمل، إضافة إلى ذلك، كل من دان ماير، وشون هاس، وتيري تاكر على قراءة فصول معينة من الكتاب، وتقديم ما هو مفيد من النصح.